عوالم العمر
قصة قصيرة
أحمد عبد المنعم دياب

إسم الكتاب/ عوالم العمر
إسم المؤلف/أحمد عبدالمنعم عبدالوهاب دياب
تصميم الغلاف/أحمد عبدالمنعم دياب
رقم الإيداع في مجلة الأمير أحمد/١٩٨٦٦ـ ٢٠٢٤

كافة الحقوق محفوظة للناشر

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء
بأي طريقة بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة
أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية
أو غير إلكترونية دون إذن كتابي من الناشر

عوالم العمر

قصة قصيرة

أحمد عبدالمنعم دياب

وصلت إلى مدينة شرم الشيخ فجرا بعد ما يقرب من ثمان ساعات سفر وكل ما يهمني هو أن أصل إلى سريري، فغايتي الوحيدة الآن هي أن أنام، ولكن الطريق إلى الفندق الذي أعمل فيه طويل، وعليَّ أن أختصر الطريق بطريق آخر وسط الصحراء سيجعلني أصل إلى الفندق تقريبا في نصف المدة.

مشيت على الطريق العمومي ويسير على يميني عكس اتجاهي أكوام من الحصى والرمال داخل صحراء يليها البحر، وعلى شمالي تسير السيارات يليها تجمعات سكنية حتى وصلت إلى ميدان أفريقيا، وعندما بدأ بزوغ الفجر أن يهل وضعت قدمي في الرمال لكي أسلك الطريق المختصر، ومشيت فيه حتى بدأ الطريق والسيارات تختفي ورائي خلف التلال الصغيرة التي كانت تملئ المكان، وظننت أنني لن أجد أحد بسبب ندرة من يسلك هذا الطريق الغير معبّد، ولكن كانت المفاجأة أنني وجدت رجل يجلس فوق تل وينظر ناحية البحر وكأنه يراقب شيء، وكان من الممكن أن أمر دون أن يراني، لكنني تعمدت السير من على يمينه لكي أمر من أمامه لأرَ وجهه، فوجدته رجل عجوز طاعن في السن، تحتل التجاعيد وجهه احتلال غاشم، تجاعيد تجعل من كل تعابير وجهه حكم ومواعظ، وكان يرتدي جلباب وحول عنقه تلفيعة تحجب نصف لحيته الطويلة البيضاء، وفوق رأسه عمامة لم أرَ مثلها من قبل، فتعجبت من وجوده في هذا الوقت وفي هذا المكان، وكنت أحدق النظر فيه حتى أنني لفت انتباهه إليّ بكثرة نظري إليه، لكنه لم يُعطي لنظراتي أي أهمية ولم يبادرني بالكلام وظل ينظر إلى البحر بتأمل.
وعندما وصلت إلى الجبل الذي سأصعد عليه لكي أصل إلى شارع هالومي بدأت قدمي لا تُطيعني في السير، وبدأ عقلي يؤيدها، وبدأ كل شيء فيّ يوقظون صديقهم الفضول، وبالفعل استيقظ الفضول داخلي وأعانني على أن أبدأ حديث معه، فلم أجد حيلة غير أن أعود إليه وأسأله عن مدخل يؤدي إلى الشارع الذي أعمل فيه.

اقتربت منه وهو لا يبالي بي وكأنه لا يراني! ووقفت قريب منه وتنحنحت ثم قلت: أين هو المدخل الذي يؤدي إلى شارع هالومي؟
فنظر لي وكأنه يتدبر سؤالي ويعلم مقصدي منه ثم قال: لماذا تريد أن تذهب إلى شارع هالومي؟
قلت: لأن الفندق الذي أعمل فيه هناك.

قال: وهل لا تعرف المدخل الذي يؤدي إلى الشارع الذي تعمل فيه!؟
صمت للحظات متفاداي الكذب، ولكن عيوني خانتني، فلاحظ هذا على تعابير وجهي فبادرني بتغير الموضوع ليقلل من إحراجي وقال: السماء اليوم صافية، وبالنسبة لي هذا يوم يدعو إلى لتفاؤل.
قلت: فعلاً، ولكن هل أنت كل يوم تستيقظ فجرا وتجلس هنا؟
قال: أنا أستيقظ كل يوم مبكرا، لكنني لا أجلس كل يوم هنا، أنا أعشق التأمل في أماكن مختلفة.
قلت: فيك شيء يشبهني. ثم جلست على حجارة بجواره.
فنظر لي نظرة تأمل سريعة ثم أعاد نظره حيث كان ناحية جبل داخل البحر تشرق الشمس من خلفه، وبدأ بالفعل شعاعها يخرج من خلف الجبل كطفلة صغيرة ظهرت يدها الناعمة على ظهر أريكة وهي تحاول القيام من ورائها، وكان لسان حال الشعاع يقول: ها أنا قد أتيت لأرفع عنكم الظلام.
سألني وهو ينظر إلى الشروق: ماذا يمثل لك شروق الشمس؟
قلت: الأمل.
حرك رأسه وكأنه أعجبه ردي ثم قال: لماذا سألت عن مدخل يؤدي إلى الشارع الذي تعمل فيه مع أنك تعرفه.
قلت: لأتحدث معك.
قال: لماذا؟
قلت: لا أعلم، ولكن ملامحك جذبتني وشعرت أن لديك حكمة وتجربة غير مسبوقة فأردت مجالستك والحديث معك.
ابتسم ابتسامة خفيفة لا تكاد تظهر على ملامحه وهو ينظر إلى شروق الشمس.
فقلت: إنني أحب مجالسة الأكبر مني ففيهم التجربة والحكمة.
قال: صدقت، فالأعمار عوالم مختلفة.
قلت: لم أفهم.
قال: الأكبر منك سننا ليس مجرد يفوقك بسنين معدودة، بل هو يعيش في عالم آخر سبقك إليه، وكل ما هو أكبر منك بثلاثين عام هو في عالم آخر غير عالمك وحديثه وتجاربه أتت إليك من مستقبل أنت ذاهب إليه.
قلت: كلامك فيه شيء من الفلسفة.
قال: بل قل فيه شيء من التجربة.

قلت: وهل قابلت خلال حياتك أحد من عمر آخر أو من عالم آخر على حد تعبيرك وتأثرت به.
قال: نعم.
قلت: احكي لي عنه.
تنهد وقال: لقد أيقظت الشجن داخل قلبي وذكرتني بما لم أنساه قط.
قلت: لم أخطئ عندما قلت إن كلامك فيه شيء من الفلسفة، احكي لي عن ذاك الذي تنهدت من أجله.
قال: هو معلمي وكان فيه صفات لم أراها في أحد غيره، وبالأخص وجهه الذي كان يتحدث كثيرا.
قلت: وجهه يتحدث!؟
قال: لا تتعجب من هذا التعبير فكان وجهه يشبه الكتاب وتعابيره تشبه السطور المكدسة بالكلمات، فكنا نقرأ من وجهه مالا يستطيع لسانه أن ينطقه، ومن صفاء سريرته كانت ابتسامته وحزنه صديقان لقلبه، كانا يفضحانه ويفصحان عن كل ما خبئ في داخله، وإذا أرادت عيونه أن تتحدث معك خطفتك من كل الدنيا وجردتك من أحزانك ومن زحام أفكارك وخواطرك لكي تقنعك أنك وحيدا لتستأثر بك حتى إذا حدثتك لم ترَ ولم تسمع غيرها، فكان لديه القدرة على أن يحكي لنا بعيونه الكثير من القصص دون أن تنطق شفتاه حرف واحداً! وكان كل ما في قلبه مرسوما على إطلالته، ولكن لم يستطيع قراءته إلا قليل القليل، وكنت أنا من هذا القليل، كنت أفهمه وأبادله الحديث بعيوني أحياناً! كنت أفهمه وكنت أستفهم منه، وكانت عيونه تعيد عليّ لأفهم، كان طيبا عاشقا للمطر، البراءة تغتال عيونه، وكان له رحيقا مثل زهر الأشجار المثمرة يسبقه إلينا إذا قرر أن يأتي ويتأخر معنا إذا رحل، كان جميلا مثل القمر هادئا مثل المساء ثم...
سكت وكأنه يحبس دموعه وانتظرته ليكمل، ولكنه لم ينطق حتى قلت: ثم ماذا؟
قال: لا شيء، إلا أنه رحل مثل غروب الشمس، لكنه لم يشرق مرة أخرى.
قلت: مات؟
قال: لا أعلم، لكن حدث خلاف بينه وبين عشيرته فرحل ولم يعد ولم يكترث لنا نحن تلاميذه، وإن قابلته سأعاتبه على هذا.
قلت: وهل تظن أن أستاذك ما زال حي إلى الآن وأنت في هذا العمر!؟
قال: لا شيء مستحيل، فنحن نعمر كثيرا.

أوقفتني كلمة نحن نعمر كثيرا لكنني لم أعقب عليها وسألته: مع هذا العمر الكبير الذي وصلت إليه إن أُتيحت لك أمنية فماذا ستتمنا؟
قال: أن أعود بالزمن إلى الوراء.
قلت: لماذا؟
قال: لألتقي بأشخاص لا أستطيع مقابلتهم الآن وأمحو من ذاكرتهم إساءتي لهم، وأعترف أمامهم أنني أحببتهم كثيراً، وأنني ما أحببت غيرهم، وأن قلبي سيظل يحملهم هم فقط، وأنهم سيخلدون داخله أبد الدهر، وأقول لهم أنني قبلهم لم أكن! وبعدهم كنت بهم، وأعتذر لهم عن كل القرارات التي اتخذتها الأقدار نيابة عني وكانت ضدهم، وأقول لهم أنني لست حزين لنسيانهم لي، ولكن سأستأذنهم أن يظلوا في ذاكرتي، وأن يظلوا ساكنين قلبي فلا أظن أن الله خلق قلبي إلا ليسكنوا فيه.
كادت كلماته أن تبكيني لكنني تماسكت ورفعت نفسي قليلا عن الحجارة التي كنت أجلس عليها وزحزحتها حتى التصقت به وتجرأت ووضعت يدي على كتفيه رأفة به وعطف عليه، فبالرغم من أنه طاعن في السن إلا أن الطفل الذي بداخله مازال بكامل فطرته ويحتاج إلى من يحتضنه ويداعبه ويلاعبه.

ظل يتحدث معي وكأنه وجد معي ضالته، وكان حديثه ممتع جدا حتى سرقنا الوقت دون أن ندري وظهرت الشمس في السماء، فنظرت في ساعة هاتفي فوجدتها السابعة والربع، فقلت: يااااااااااه، لقد مرت ساعتان سريعاً لم أشعر بهما.
قال: ولا أنا.. شكرا على وقتك المتميز فأنا لم أتكلم ولم أجلس مع شخص مثلك تأكد أنني لن أنساك.
قلت: ولا أنا. هل ستشاهد شروق الشمس غدا؟
قال: نعم.
قلت: أين؟ لكي آتي لأجلس معك.
قال: في دولة تنزانيا، فرؤية شروق الشمس من المحيط أجمل.
ابتسمت وظننته يداعبني لأن مظهره لا يدل على رجل يستطيع السفر ثم قلت له: من أي البلاد أنت؟
قال: من كون الله، فكل كون الله بلدي.
قلت: أليس لك وطن؟

قال: الأرض أرض الله، وما الوطن إلا خدعة اخترعها الملوك قديما ليفرضوا على الناس سيطرتهم، وإن حق يوجد وطن فوطنك الحقيقي هو المكان الذي تشعر فيها بالأمان والرخاء حتى وإن لم تُولد فيه.
قلت: إذن الكثير من الناس لا يعيشون في أوطانهم.
قال: للأسف هذا حقيقي، وليس من المنطقي أن تتخذ وطناً من المكان الذي تعيش فيه مكبوت مقهور تعاني فيه من ضيق العيش، حتى وإن ولدت فيه.
قمت من مكاني وأنا أنفض التراب من على ملابسي ثم اعتدلت في الوقوف وقلت له: كلامك عجيب جدا! لكنه مقنع وأحيا بداخلي مشاعر أظنها لم تأتيني من قبل والوقت يمر معك سريعا دون أن أدري، ولكن هل تسمح لي بسؤال أخير أظنه محرج؟
قال: اسأل ما شئت.
قلت: كم عمرك؟
قال: ١٧٥٠ عام!.
ابتسمت وقلت: إن لم يكن عندك مانع جاوبني بصدق.
قال: وهذا هو عمري بصدق، ولم أتعود الكذب، أنا عمري١٧٥٠عام وأبي عمره يزيد عن ٤٠٠٠عام.
قلت بتعجب: كيف يكون هذا عمرك وعمر أبيك!؟ من أنت!؟
قال: أنا بازخ ابن شارم ابن زامع ابن ياثع ابن إبليس.

انتهى

نبذة عن الكاتب

هو أحمد عبد المنعم دياب
كاتب ومفكر مصري
يعود نسبه إلى سلالة كوترومانيتش
آخر سلالة ملكية حكمت دولة البوسنة والهرسك
أتت عائلته إلى مصر ضمن جنود محمد علي باشا
لطرد الإحتلال الفرنسي من مصر
له عدة مؤلفات ، منها من طُبع ، ومنها في طريقه للطباعة

القراءة روح الحياة والذي لا يقرأ هو في الحقيقة ميت

أحمد عبدالمنعم دياب